الفصل الأول

صعوبات كتابة
كتابة تاريخ الماسونية

تاريخ الماسونية فى العالم:

إن المعلومات المتوافرة حول مثل هذه المنظمات التى تتستر فى نشاطها وراء علامات وشارات وبأسلوب خفى لا يمكن بأى وجه من الوجوه أن تكون مساعدة لبحث يقوم على أساس من المشاهدة والاستقراء والبحث العلمى الحقيقى. والكتب والمقالات التى كتبت حتى الآن حول الماسونية فى العالم ليست قليلة فقد أعد أحد الكتاب الإيرانيين قائمة طويلة للمصادر والمراجع المتعلقة بالماسونية ذكر فيها ما يقرب من ١٦٦٠ عنواناً لكتاب أو بحث، كما أن مؤلفاً ألمانياً باسم وولفيشتاج (Walfstag) نشر فى سنة ١٩٢٣م (١٣٠٢ هـ شمسى) قائمة بأسماء الكتب المؤلفة حول الماسونية وصل عددها إلى ٢٣ ألف عنوان لكتاب أو بحث(٢).

ومن الواضح أنه قد أضيفت إلى مثل هذه القائمة بعد ذلك المئات بل الآلاف من عناوين الكتب الأخرى، ومع هذا كله فإن صعوبة الكتابة حول هذا الموضوع تظهر بشكل واضح للغاية فالكثير من هذه الكتابات كتبت أصلاً بهدف التيرويج للماسونية ولاستخدام الملتحقين بها أو كما يطلقون هم على أنفسهم «الأخوة» (Brethren) وهذه الكتب لا تعرض للبيع فى المكتبات أو توضع فى المكتبات العامة للإطلاع ولا يعرف القراء العاديون طريقا للحصول عليها، وما هو متوافر من معلومات حول الماسونية يتسم بالنقص وعدم الخلو من الغرض والكثير من هذه الكتابات كتبت بأقلام كتاب وأشخاص ينتسبون إلى الماسونية وقد حاول مثل هؤلاء الكتاب الترويج لعنف للماسونية والدفاع عنها ضد أعدائها واعتبارها قائمة على أساس من القيم الإنسانية العليا والمحبة بين البشر وأبعدوا عنها أى نوع من النقص والفشل واعتبروا هؤلاء الأشخاص الذين لا يؤمنون بدائرة الماسون من الضالين والجهلاء والمتخلفين والبعيدين عن المنطق العقلى، ومن الواضح أنهم لم يبادروا بإفشاء أى سر من الأسرار الخفية للماسونية، والنماذج الواضحة لكتابات مثل هؤلاء الكتاب تتركز فى كتاب جورجى زيدان (١٨٦١: ١٩١٤م/١٢٧٨: ١٣٣٣هـ) الماسونى اللبنانى(٣) وكذلك كتاب جوبتا الماسونى الهندى(٤) وكتاب هنتر (Hunter) الماسونى الأمريكى(٥).

كما أن هناك نوعاً من الكتابات حول هذا الموضوع قام بها كتاب لم يكونوا من الماسون ونتيجة لذلك لم يكن لديهم تلك المعلومات الفريدة عن الأسرار الخفية المهمة والنشاطات

المختلفة للماسون والماسونية ولكن استنتاجاتهم حول كثير من الموضوعات جاءت سليمة ومطابقة للواقع أحياناً وأحياناً أخرى غير دقيقة وغير سليمة، كما أن هناك عدد آخر من مصادر معلوماتنا حول الماسونية أعدها أشخاص كانوا من الماسون فى وقت من الأوقات ثم خرجوا من دائرة الماسونية، صحيح أنهم كانوا على علم بكثير من أسرار الماسونية التى وردت فى كتاباتهم ولكن لأننا لا نعلم بشكل سليم ما هى أسباب وعلل خروجهم من دائرة الماسونية فنحن مضطرون لأن ننظر إلى تلك المعلومات التى تظهر صحيحة فى معظمها بعين الفحص والتحقيق ولا نعول كثيراً على ما يقولونه أكثر من كونها مقياس دقيق يقوم إلى جانب الدلائل والمستندات التى لا يمكن الحصول عليها بسهولة.

وإلى جانب هذا النوع من الكتابات يجب إضافة تلك الأبحاث التى قام بها باحثون استناداً على أدوات وخصائص بحثية خفية وسرية، وهذه الأبحاث لا يجب أن تصنف ضمن خصائص الكتاب المذكورين آنفاً على الأقل لأنهم هم أنفسهم يدعون أن هدف بحثهم هو مناقشة وتحليل الماسونية بشكل شامل، ولأن هذه الأبحاث ينطبق عليها المقومات البحثية السليمة فهى تعتبر أكثر شمولية وأفيد وأجدر بالقراءة وغنية بالمعلومات أكثر من الكتابات الأخرى، ولكن يجب أن نتذكر أن نفس هذه الأبحاث لا توفر لنا المعلومات أيضاً سوى فى نفس الإطار الذى ذكرناه من قبل، ومن هذا الطريق فإن البحث حول الماسونية يعتبر صعباً للغاية.

ونحن فى بحثنا هذا نحاول جاهدين أن نعطى المعلومات السليمة على الرغم من هذه الصعوبات فى إطار المراجع ومصادر المعلومات التى توفرت لنا وبمراعاة مسيرة المشكلات التاريخية والثقافية والاجتماعية فى كل مكان من العالم يشمله بحثنا صعوبات كتابة تاريخ الماسونية فى العالم الإسلامى.

إن كتابة تاريخ الماسونية فى العالم الإسلامى أيضاً لا يخلو من صعوبات متعددة ومتشعبة. ولأن مطلبنا فى هذا البحث هو مناقشة مسيرة الماسونية فى العالم الإسلامى فلا أقل من أن نلقى نظرة على صعوبات الكتابة التاريخية فى هذا الموضوع. فعلى الرغم من الأهمية التى اكتسبها نشاط الماسونية فى مسيرة الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية لكثير من البلاد الإسلامية فإن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام كبير من جانب كتاب وباحثى التاريخ فى الدول الإسلامية والمصادر التى كتبت حول التاريخ العام للنشاط السياسى للمحافل السرية فى العالم. طبيعى أنها أغفلت المحافل السرية فى الشرق الأوسط وأخرجتها من دائرة بحثها وأن الكتب العربية التى تناولت هذا الموضوع اتبعت نفس الأسلوب حتى مصر التى تعتبر أعظم دولة عربية وكان لها دخل فى المسائل السياسية والاجتماعية والدولية منذ القرن التاسع عشر وقبل أى دولة عربية أخرى لم يهتم أصحاب الرأى فيها بمسيرة نشاط المحافل والجمعيات السرية ومنها الماسونية بشكل جيد ومن الواضح أن أحد أسباب عدم اهتمام الباحثين بهذا الجانب من التطورات فى الدول الإسلامية هو الطبيعة السرية للمحافل الماسونية. والمشاركون فى مثل هذه النشاطات

السرية كانوا يبذلون جهودهم المتواصلة حتى لا يتسرب أى مستند يدينهم حفاظاً على أرواحهم، وقد وجدنا أن أحد كتاب تاجيكستان السوفيتية بعد أن قرأ فى سنة ١٣٤٠ شمسى كتابا حول الماسونية فى إيران فكر فى أن يتناول بالبحث موضوع الماسونية فى منطقة ما وراء النهر، وهذا الكاتب الذى يدعى «عبد الغنى ميرزايوف» لكى يصل إلى مطلبه هذا قام بقراءة دقيقة للمصادر الأدبية والتاريخية فى منطقة ما وراء النهر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وفى النهاية وبعد كل هذا البحث والاستقراء لم يذهب جهده هباءً حيث وجد ضالته فى أحد مؤلفات المفكر النابه فى منطقته ما وراء النهر خلال فترة أواخر القرن التاسع عشر الميلادى وهو أحمد محذوم، حيث عثر فيه فقط على حديث قصير ومثير حول «المحفل الماسونى» فرامو شخانه» مما أسعده كثيراً وأحس أنه وصل لبغيته فأحمد مخدوم دانش هذا الذى كان قد سافر إلى بتروجراد (بطرسبرج) عاصمة روسيا القيصرية ثلاث مرات ضمن وفد سفارة الحكومة الخانية فى بخارى أو تعرف عن قرب على التغييرات الاجتماعية والتقدم الاقتصادى والعسكرى والثقافى فى البلدان الغربية ذكر فى مؤلفه المشهور تحت عنوان «نوادر الوقايع» حول الماسونية والمحافل التابعة لها ما يمكن أن نحمله على أنه مدح فيها حيث قال:

«فى جميع بلاد الفرنجة نجد منازل وبيوت قد أعدت وأوكل عليها أشخاص لأدائها وتسمى هذه البيوت (محفل الماسونية) (فراموشخانه) والذى يدخل إلى هذه المحافل والبيوت يلقب بالماسونى حيث يجتمع الأعضاء فى كل محفل مرة أو مرتين أسبوعياً ولا يسمح لهم بالدخول فى أوقات أخرى - غير أوقات الاجتماع - ..... وعندما يدخل الشخص إلى ذلك المحفل تتغير أحواله وأخلاقه بعد ساعة أو اثنين من دخوله ولكن إلى الأحسن حيث لا يتسم بالكذب بعد ذلك ولا يتوصل بالنفاق ويصبح كريماً رحيماً شفيقاً حليماً خاصة مع هؤلاء الأشخاص الذين ينتمون إلى نفس المحفل حتى ولو كانوا على غير دينه ومذهبه ويتراحمون مع بعضهم ويؤثرون على أنفسهم بعضهم البعض لدرجة (أنه إذا طلب أحدهم ألا يضايقه آخر مرة أخرى فأنه لا يفعل) وكل شخص يصبح من الماسون من أى ملة فإن أهل هذه الملة يحكمون بكفره بينما يعتبر هو هذه الجماعة مثل الحمير والبقر ولا يمكن أن يكونوا من بنى الإنسان والإنسان لديه هو ذلك الذى أصبح من الماسون ولهذا السبب نجد أنه فى جميع محاكم الهند وبلاد الفرنجة إذا كان الماسون شاهداً فى دعوة مرفوعة أو نزاع أمام المحاكم فإن القضاة يقبلونه بلا جدال اعتقاداً منهم أنه لا يكذب ولا ينافق، ويكون هذا الشخص محترماً وعزيزاً فى مجلس الكبراء والأشراف وإذا ماسونى تحدث مع شخصاً اخر غير ماسونى فأنه لا يتحدث معه إلا فى الأمور المحمودة والمعقولة وإلا فإنه يصمت(٦).

وفى السنوات التالية لسنة ١٣٥٠ شمسية حيث نشر ميرزايوف هذا الذى كتبه لم تكن قد ظهرت بعد أى كتابة أخرى حول أنشطة الماسونية ولا نظن أنه قد ظهرت بعد ذلك وثائق حول هذا الموضوع ويبدو أنه لم تظهر حول الماسونية فى أفغانستان أيضاً أية كتابات سوى بصورة

متفرقة. بينما نجد أحد الهنود الذين يكتبون بالفارسية ويدعى «دبير الإنشاء» يتحدث عن محفل للماسونية فى كابل يسميه «منزل السحرة فى كابل» (جادو كَرخانه كابل) فى مجموعة كتابات له تحت اسم «إفشاء أسرار الماسونية» نشرت فى لكهنو بالهند عام ١٨٧٣م/١٢٩٠هـ وكان هذا المحفل يتبع الماسون فى كابل وعندما دخلت القوات الإنجليزية إلى كابل قامت بإنشاء هذا المحفل الماسونى لضباطها وجنودها الماسون ويضيف «دبير الإنشاء» فى مؤلفه هذا ان شجاع الملك حاكم كابل فى ذلك الوقت والذى كان يأمل أن يطلع على أسرار الماسون سمح للإنجليز بإقامة محفل ماسونى ودفع بعدد من أتباعه ومعاونيه حتى يعرفوا تلك الأسرار الداخلية للماسونية ولكن حتى ذلك الوقت الذى كان الإنجليز فيه موجودين فى كابل ولم يكن «محفل كابل» قد أغلق بعد لم يتقدم أى شخص منهم بأية معلومات عن نشاط الماسونية وتقاليدها ومراسمها، وبعد ذلك بثلاث سنوات رحل الإنجليز عن كابل وأغلق محفلهم أيضاً عندئذ حان الوقت لكى يتحدث أول مندوب لشجاع الملك عن مساوئ ومسالب الماسون حيث كتب «منذ ذلك اليوم الذى أصبحت فيه فى عداد الماسون اعتبرت جميع العبادات والتكاليف الشرعية ضربا من اللهو» وفى النهاية فإن «دبير الإنشاء» نفسه يصرح بأن الأسلوب الوحيد لمتابعة أسرار الماسون هو «تخريب مراكز ومحافل الماسونية وهدمها»(٧).

ومعلوماتنا عن أنشطة الماسونية فى أفغانستان لا تزيد عن هذا الحد.

وقد جاء فى نشرة المحافل الماسونية بالهند التى نشرت فى سنة ١٩٧١م/١٣٥٠ شمسية ذكر لمحفل باسم «أفغان» تحت رقم ١٠٨، ولكن لم تصلنا حتى الآن أية معلومات حول أنشطة هذا المحفل وعلاقته المحتملة بالأفغان وأفغانستان(٨).

ونحن بأى وجه من الوجوه لا نستطيع أن نفصل إيران عن هذه الخصائص العامة التى اختصت بها الدول الإسلامية فيما يتعلق بالكتابة فى تاريخ الماسونية إلى درجة أنه حتى السنوات الأخيرة لم تكن قد ظهرت كتابات كثيرة حول الماسونية. وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كتبت رسالتان فى تأييد ورفض محفل ملكم الماسونى، ولكن لم تطبع رسالة واحدة من هاتين الرسالتين فى ذلك الوقت(٩). ويقال أن أول كتاب يؤلف فى اللغة الفارسية حول مسألة الماسونية برمتها كان هو كتاب «دبير الإنشاء» الذى تحدثنا عنه آنفاً ويدور موضوعه أيضاً حول الماسونية فى الهند وأفغانستان، وكنا مضطرين لأن ننتظر حتى النصف الثانى من عقد الأربعينات فى التقويم الشمسى ١٣٤٠ ش للحصول على معلومات أوسع وأشمل. فى هذا الوقت ظهرت مجموعة من الكتابات والمقالات التى تحوى كثيراً من المعلومات حول الماسونية فى إيران على الرغم من أن أكثرها لم تتمتع بالدقة والأسس البحثية السليمة بشكل مرضى.

والنقطة الجديرة بالتسجيل هنا هى أن كاتبين اتفقا فى سنة ١٣٤٦ شمسية أن يقوم كل واحد منهما بتاليف كتاب حول الماسونية فى إيران. وعندما كان إسماعيل رائين ينشر الجزء الاول

من كتابه فى إيطاليا فى شهر دى(*) من سنة ١٣٤٦ شمسية كان محمود كتيرائى قد أعد كتابه للنشر حتى ينشره فى طهران مع مقدمته التى أنهاها فى تاريخ السادس من بهمن من نفس العام وهذا يثبت حقيقة أن هذين الكاتبين قد أرادا أن يطبعا وينشرا كتابيهما فى وقت واحد وأن أيا منهما لم يوصىّ الآخر بكتابة كتاب حول الماسونية بنشره لكتابه قبل الآخر.

وبعد هذا التاريخ بعامين ظهر كتاب آخر حول الماسونية فى العالم لكاتب آخر وهو إبراهيم ألفت «حسابى» أما لماذا قام هؤلاء الكتاب الثلاثة فى سنة واحدة أو على مدار سنة أو سنتين بتناول مثل هذا النوع من الأبحاث بشكل فجائى فهو سؤال تخرج الإجابة عليه عن دائرة بحثنا وليس هدفنا هو زيادة عدد التخمينات والتحليلات المقدمة فى هذا الموضوع. وعلى كل فإن أكثر هذه المؤلفات الثلاثة عشر هو كتاب إسماعيل رائين الذى ظهر فى ثلاثة أجزاء فمن بين الأسرار التى فضحها هذا الكتاب طبع قائمة طويلة بأسماء الساسة والعلماء الإيرانيين الذين التحقوا بمحافل الماسونية المختلفة ولكن على الرغم من أن مؤلف الكتاب «إسماعيل رائين» كان نفسه عضواً فى أحد المحافل الماسونية الأمريكية طبقاً لإدعاء نشرة الجبهة الوطنية الإيرانية التى تصدر فى الخارج فإن اسمه لم يظهر ضمن هذه القائمة من أسماء الماسون الإيرانيين(١٠).

والآن حيث ظهرت هذه الكتب بأى صورة أصبح من الواضح أنه عقب نشرها أصبحت معلوماتنا حول تاريخ الماسونية فى إيران أكثر من ذى قبل بشكل لافت للنظر. ومن ناحية أخرى يجب علينا أن نقر بأن ما نعرفه حول الكثير من الدول الإسلامية يعتبر قليلاً جداً بالقياس بالمراجع والمصادر التى حصلنا عليها حول إيران، ولكن على الرغم من هذا النقص الكبير فإننا نسمح لأنفسنا بأن نخطو فى هذا الرحب الواسع حتى نوجه على الأقل فى إيران أفكار الباحثين والمهتمين بالحركات الاجتماعية والفكرية والسياسية فى العالم الإسلامى إلى هذا الاتجاه فربما خطوا خطوات مفيدة وشاملة على هذا الطريق ليخرجوا أبحاثاً عميقة وشاملة ومليئة بالمعلومات للقارئ فى اللغة الفارسية.

هوامش الفصل الأول

١- إسماعيل رائين: فراموشخانه وفراما سونرى درايران (تهران، ١٣٥٧ خورشيدى) جلددوم ص ٦٣٧: ٧٣٨.

٢- Najdat Fathi Safwat, Arab Papers, No ٤: Freemasonry in the Arab World (London, ١٩٨٠), p. ٧.

٣- جرجى زيدان، تاريخ الماسونية العام (القاهرة ١٩٢١).

٤- G.S. Gupta, Freemasonic Movement in India (New Delhi, India, ١٩٨١).

٥- Frederick M. Hunter, A study of an interpretation of the Regius Manuscript: the Beginnings of AngloSaxon Masonary as an ever-widening Road to Freedom (Oregon, U.S.A, ١٩٥٢).

٦- عبد الغنى ميزرايف، «اسناد جديد راجع به فراموشخانه وبعضى از مقاصد اهل آن»، درجشن نامه محمد يروين كَنابادى: سى ودوكَفتار درايران شناسى به باس بنجاه سال خدمات فرهنكَى. زير نظر محسن ابو القاسمى (تهران، ١٣٥٤ خورشيدى)، ص ٤٢٩: ٤٢٠.

٧- رائين، فراموشخانه، جلدبكم، ص ٢٩١، ٢٩٧: ٢٩٨.

٨- Anonymous, List of lodges, Masonic (Bloomington, Illinois, ١٩٧١ U.S.A., ١٩٧١). P. ١٢٠.

٩- للرجوع إلى نص هاتين الرسالتين انظر: محمود كتيرانى، فراماسونرى درايران از أغازتا تشكيل لژبيدارى ايران (تهران، ١٣٥٥ خورشيدى)، ص ١٦٠ به بعد.

١٠- Hamid Algar, «An Introduction to the History for Freemasonry in Iran», MES, VI (١٩٧٠), ٢٩٣.